ما بعد التقاعد

بسمة النسور

استيقظت المرأة الوحيدة الحانقة على نفسها وعلى الدنيا بأسرها بمزاج رائق، على غير عادتها منذ أُحيلت على التقاعد قبل بضعة أشهر بعد سنوات طويلة قضتها امرأة عاملة منتجة أمضتها في العمل في مؤسّسة حكومية، تدرّجت خلالها في السلم الوظيفي حتى شغلت موقعاً قيادياً أتاح لها أن تُصدر القرارات وتضع الخطط وتنال رضا رؤسائها بسبب تفانيها في أداء مهام وظيفتها، فاعتُبرت دائماً الموظّفة المثالية المبدعة الجادّة الملتزمة باللوائح والقوانين والتعليمات. حين قرأت اسمها ذات صباح في قائمة الموظفين المُحالين على التقاعد، وقع قلبها ذُعراً، وأحسّت أن عالمها انهار وتداعى في لحظة. دائماً كانت تخشى هذا اليوم، لكنها انغمست كلّياً في عملها، ومنحته كل اهتمامها، حتى إنها نسيت أن تعيش حياتها الطبيعية خارج أسوار الوظيفة، كأن تتزوّج وتُنجب مثل بقية النساء. طُلّت تؤجّل قرارها بالزواج، رغم تقدّم عرسان كثيرين لها لم يعودوا يطرُقون بابها، بعد أن وصلت إلى سنّ الأربعين، كأن ذلك لم يؤثّر بها كثيراً، لأن حياتها المهنية كانت مكتظّة بالسفريات والاجتماعات واللقاءات والدورات التدريبية والمؤتمرات المتخصّصة والإنجازات الكثيرة التي كانت تمنحها الثقة بالنفس والرضا عن الذات. أعدّت قهوتها، بعد أن ألقت تحية الصباح على صور والديها الراحلين. سقت نباتاتها المنزلية يانعة الخضرة التي تعريشت على الجدران، فأضفت على منزلها الصغير بعضاً من الحيوية، ومنحتها سبباً لإحساس خفيٍّ بالرضا عن نفسها افتقدته منذ تركت العمل وأصبحت تعاني من الشعور بالفراغ والوحدة وبأنها عديمة الجدوى، وأن حياتها بلا معنى أو هدف. ما أوقعها في اكتئاب شديد اضطرّها إلى اللجوء إلى طبيب نفسي شهير. وصف لها أقراصاً تحفّز هرمون الدوبامين الخامل في دماغها، كما قدّم لها نصائح عن ضرورة أن تشغل نفسها بهوايات واهتمامات جديدة تملأ وقتها، غير أن ذلك كله لم يُجد نفعاً. وظلّت على حالها حزينة منسحبة ناقمة.

أهملت مظهرها، فلم تعد تزور مصفّف الشعر كما اعتادت أن تفعل حين كانت على رأس عملها. فكّرت وهي تحتسي قهوتها على الشرفة، وتراقب أطفال الحيّ وهم يستقلون الحافلات التي تقلّهم إلى مدارسهم، والأمهات والآباء متوجّهين مسرعين إلى أعمالهم: لمَ عليها أن تفعل شيئاً ما قبل أن تُطبق العزلة على ما تبقّى من روحها المتعبة. أخذت تتصفّح هاتفها علّها تعثر على فكرة ما تعينها على تنفيذ قرارها باللامرّد على واقعها المملّ الكئيب. إعلانات مقاهٍ ومطاعم بعروض إفطار بأسعار متدنّية لم تتحمّس لأيٍّ منها، لأنها مثل جنرال ماركيز ليس لديها من يرافقها. وبالتأكيد، لن تذهب إلى مثل هذه الأماكن وحدها، فسوف يكون هذا مثيراً للرثاء. تابعت مقاطع فيديو لنساء في مثل عمرها أقدمن بعد التقاعد مشاريع صغيرة تشغل أوقاتهن، وتدرّ عليهنّ أرباحاً معقولة وتُشعرهن بالسعادة. غير أنها لا تتقن أي مهارات تُذكر، فهي طبّاخة رديئة، وهي غير معنيّة بالمجتمع المحلي، وليس لديها أي رغبة في تقديم أي خدمات عامة كما تفعل نساء كثيرات متأنقات حاضرات في كل المناسبات بكامل زينتهن وإقبالهن على الحياة، الحريصات على التقاط صورهنّ سعيداتٍ مشاركاتٍ فاعلاتٍ في احتفالات عيد الاستقلال، وعيد العمّال، وعيد الأم، ويوم المرأة العالمي. لا تفوتهنّ ندوة أو محاضرة أو معرض أو بازار خيري، نوعية من النساء لا تروقها ولا يمكنها أن تصبح مثل أيٍّ منهن ليقينها أنها لا تمتلك مواصفات سيدات المجتمع المتحمّسات المتحقّقات الراضيات عن أنفسهن بلا سبب واضح، لكن فكرة التغيير ظلت ملحّة لم تغادر رأسها.

خرجت مسرعة من البيت، وتوجّهت إلى أقرب صالون تجميل، طالبة منه تغييراً جذرياً في هيئتها، تجوّلت في الشوارع بلا هدف، ثم عادت إلى البيت وقد تملّكها اليأس. شغّلت جهاز التلفزيون وأخذت تتابع أحداث مسلسل تركي أطول من الحياة نفسها الذي ظلّت مستمرّة في الخارج غير عابئةٍ بانكسارها!

الأقصى خلال رمضان في ظل العدوان

داود كتّاب

مع استمرار العدوان والإبادة على الشعب الفلسطيني في قطاع غزّة، أصبح غير متوقع التوصل إلى اختراق في المفاوضات غير المباشرة بين حركة حماس والاحتلال الإسرائيلي، يوفر البيئة الهادئة للشعب الفلسطيني والشعوب العربية والإسلامية لأن تحتفل بشهر رمضان المبارك. ومن المتوقع أن تنتقل الأنظار إلى مدينة القدس المحتلة، وبالذات إلى الحرم القدسي الشريف/ المسجد الأقصى، والذي سيكون محط أنظار العالم، لما له من قدسية خاصة لنحو مليارَي مسلم، وبالتأكيد لملايين المسلمين في فلسطين التاريخية.

استبق المحتل الإسرائيلي الصعوبات التي ستواجهه في القدس بعزل وزير الأمن الداخلي، المتطرّف إيتمار بن غفير، عن قرارات تنفيذية متعلقة بما سيجري في الأقصى، كما صرح رئيس الوزراء الإسرائيلي، نتنياهو، بأنه لن يتم فرض قيود على دخول باحات المسجد الأقصى في شهر رمضان. يقول الجانب الإسرائيلي إن الاحتلال سيسمح بدخول الأعداد نفسها التي كانت تصلي في «الأقصى» في السابق، وهنا سندخل في حرب الأرقام، حيث التقديرات الإسرائيلية مختلفة كثيرا عن التقديرات الصادرة عن مجلس الأوقاف الإسلامي في القدس، الذي أصدر بياناً مهماً يعالج كل الأمور الخاصة بالشهر الفضيل، وبما سيجري في الحرم القدسي الشريف/ المسجد الأقصى، بما في ذلك موضوع الاعتكاف، وهو الذي ترفضه إسرائيل جملة وتفصيلا. قال إنه سيسمح بالاعتكاف ليلتي الخميس والجمعة من كل أسبوع، كما سيتم السماح بالاعتكاف في آخر عشرة أيام من شهر رمضان، والتي تشمل ليلة القدر، الليلة التي يؤمّ فيها الأقصى مئات الآلاف من المصلين.

اجتمع العاهل الأردني، عبد الله الثاني (العائلة الهاشمية صاحبة الوصاية على المقدّسات الإسلامية والمسيحية في القدس)، وهو الذي تدير حكومة بلاده، من خلال وزارة الأوقاف الأردنية، شؤون الأقصى، اجتمع أخيراً مع نوّاب العرب في الكنيست الإسرائيلي، للتشاور بشأن أفضل الحلول لتجنّب الانفجار في القدس وضمان حرية التعبير والعبادة وحقّ الجميع في الوصول إلى دور عبادتهم، وأهمها المسجد الأقصى.

ولكن، رغم كل التجهيزات المسبقة والأوضاع المستمرة، لا يزال مجهولاً للجميع كيف ستتصرّف قوى أمن الاحتلال في مواقع عديدة، ومنها نقاط عبور الفلسطينيين من باقي الضفة الغربية إلى القدس؟ ثم كيف ستكون الأوضاع على أسوار القدس، من حيث السماح أو المنع لدخول البلدة القديمة؟ وأخيراً كيف سيجري التعامل مع المصلين في أبواب المسجد الأقصى الذي يشارك حرّاسه غير المسلحين في حمايتها مع الشرطة الإسرائيلية المدجّجة بالسلاح والتي تفرض مواقفها بالقوة. وليس معروفاً كيف ستتعامل إسرائيل ليلتي الخميس والجمعة الموافقتين 14 و15 مارس/آذار مع المعتكفين في الأقصى، هل عن قرارات تنفيذية متعلقة بما سيجري في الأقصى، كما صرح رئيس الوزراء الإسرائيلي، نتنياهو، بأنه لن يتم فرض قيود على دخول باحات المسجد الأقصى في شهر رمضان. يقول الجانب الإسرائيلي إن الاحتلال سيسمح بدخول الأعداد نفسها التي كانت تصلي في «الأقصى» في السابق، وهنا سندخل في حرب الأرقام، حيث التقديرات الإسرائيلية مختلفة كثيرا عن التقديرات الصادرة عن مجلس الأوقاف الإسلامي في القدس، الذي أصدر بياناً مهماً يعالج كل الأمور الخاصة بالشهر الفضيل، وبما سيجري في الحرم القدسي الشريف/ المسجد الأقصى، بما في ذلك موضوع الاعتكاف، وهو الذي ترفضه إسرائيل جملة وتفصيلا. قال إنه سيسمح بالاعتكاف ليلتي الخميس والجمعة من كل أسبوع، كما سيتم السماح بالاعتكاف في آخر عشرة أيام من شهر رمضان، والتي تشمل ليلة القدر، الليلة التي يؤمّ فيها الأقصى مئات الآلاف من المصلين.

اجتمع العاهل الأردني، عبد الله الثاني (العائلة الهاشمية صاحبة الوصاية على المقدّسات الإسلامية والمسيحية في القدس)، وهو الذي تدير حكومة بلاده، من خلال وزارة الأوقاف الأردنية، شؤون الأقصى، اجتمع أخيراً مع نوّاب العرب في الكنيست الإسرائيلي، للتشاور بشأن أفضل الحلول لتجنّب الانفجار في

تفتيت الجسد الفلسطيني في حرب التجويع

عصام شعبان

تتصل جريمة شارع الرشيد في قطاع غزّة، حيث استهدف متلقّو المساعدات وقُتلوا عن عمد، بتكريس ذاكرة الألم، بما فيها من مفردات النزوح والتجويع والحصار والدمار. وتتضمّن استراتيجية إسرائيل العسكرية كسر الإرادة، وأن يندم الفلسطينيون على ما جرى منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول، وألا يحاولوا تكراره، وصولاً إلى التسليم بأن صعوبة العيش تحت الحصار أفضل من فقدان كل سبل الحياة. لذا؛ يُفرض الاحتلال المعادلة الحالية: من لم يمت بالقصف سيواجه نقصاً في الغذاء، وإذا حاول تجاوز الجوع بالبحث عن طحين فسيسقط في كمين يعيده إلى دوائر الخطر والخوف، ولن يجد من يداوي جروحه.

الهدف النهائي لهذه الإستراتيجية إعادة تشكيل المشهدين، السياسي والجغرافي، وتمهد لذلك بحرب تشمل البنية النفسية والاجتماعية لسكّان القطاع، إذ لا تريد تحقيق الانهيار للبنية التحتية فحسب، لكن لمجمل الجسد الفلسطيني، أشخاصاً ومجتمعاً وشعباً، ردّاً على عملية 7 أكتوبر، وفي محاولة لتحويل مظاهر القوة والفخر والقدرة (المقاومة) إلى مشهد مغاير يبدو خلاله الياس والعجز وإهدار الكرامة، بما في ذلك الهرولة للحصول على المساعدات هرباً من شبح الجوع، الذي يكسر الأنفس، ويصيبها بالقلق وسياسياً، يريد الاحتلال تمزيق الجسد الفلسطيني، وزيادة مساحة الانقسامات سياسياً واجتماعياً بما يخفّف المواجهة معه، وأن تبتعد فئاتٌ عن أي فعل جماعي، ويبقى الهمّ فردياً، فتنهار معها إمكانات تنظيم المجتمع وإدارته، وتتّسع الفوضى التي يمكن معها إحكام السيطرة وشل الإرادة. وعموماً، يدفع الاحتلال باتجاه انهيار النظام الاجتماعي، وليس انهيار النظام السياسي وإيعاز حكومة حماس في القطاع فقط.

قبل جريمة 29 فبراير/شباط الماضي، التي خلّفت ما يزيد على 118 شهيداً و760 جريحاً ضمن الألف ينتظرون شاحنات المساعدات، كانت يوميات البحث الشاقّ عن الطعام مستمرّة، لكن الأزمة تفاقمت خلال الشهر الماضي، تزامناً مع مفاوضات التوصل إلى هدنة، وأداة للضغط، انخفض مجمل المساعدات بنسبة 50%. وفي بعض الأيام لم تمر سوى 20 شاحنة، من معبري كرم أبو سالم ورفح، كما انقطع وصول المساعدات إلى الشمال منذ 23 يناير/ كانون الثاني، بحسب وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، مع تكرار استهداف قوافل الإغاثة قبلها.

بلغ عدد النازحين في رفح مليوناً ونصف مليون، يتجمّع الآف منهم في انتظار المساعدات، وينضم إليهم من يرتحل من الشمال والوسط، ويجتازون المخاطرة بحثاً عن كيس طحين، بديلاً لحبوب الحيوانات وأعلافها التي استخدمت لخبز لا يصلح طعاماً، لكن هذا «التكيّف» محاولةٌ للبقاء على قيد الحياة لم يعد ممكناً، تحذّر تقارير مكتوبة ومصوّرة من أن علف الحيوانات كاد ينفد، ويعاني معظم السكان انعدام الأمن الغذائي بسبب منع وصول المساعدات والبضائع، وكذلك تدمير مصادر إنتاج الغذاء في القطاع، وتعثّر إمكانات التنقل بين مناطقه إن توفّرت بعض السلع.

وهناك روتينٌ يوميٌّ وشاقٌّ لتأمين المياه والطعام، وفرصة الاستحمام إن أمكن. يولّد كل ذلك المشهد بتفاصيله من قتل عن الطعام مستمرّة، لكن الأزمة تفاقمت خلال الشهر الماضي، تزامناً مع مفاوضات التوصل إلى هدنة، وأداة للضغط، انخفض مجمل المساعدات بنسبة 50%. وفي بعض الأيام لم تمر سوى 20 شاحنة، من معبري كرم أبو سالم ورفح، كما انقطع وصول المساعدات إلى الشمال منذ 23 يناير/ كانون الثاني، بحسب وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، مع تكرار استهداف قوافل الإغاثة قبلها.

> مع إدانة حرب التجويع، يغيب موقف عملي يضغط في اتجاه وقف الجريمة

النظام الصحي، وتقلّص فرص مداواة 71 ألف جريح داخل القطاع وخارجه بحكم الحصار، ذلك كله بجانب إحساس بالفقد لدى أهالي ما يزيد على 30 ألف شهيد مسجلين، غير مَن لم يجر إحصاؤهم تحت أنقاض المنازل وفي مسارات النزوح المتكرّر من منطقة إلى أخرى تحت القصف، واكتشاف ما تبقى من أجسادهم، من دون التعرف على هوياتهم.

يراد في هذا المشهد معاقبة الغزّيين وإظهار صورة الهوان، وإثبات أنهم يواجهون المأساة وحدهم، بلا مساندة تُذكر، حتى في مواجهة الجوع. ومع هذه الصورة، يتبدّد الأمل أو اعتزاز بالصمود والفخر بالمقاومة، ويتبدّل بتكريس الألم، والإحساس باليأس وصولاً إلى الهزيمة على مستويين، اجتماعي ونفسي، قبل المستويين، العسكري والسياسي. أو بمعنى آخر، يهدف الاحتلال إلى إحداث هزيمة نفسية وشعور بالخيبة والحسرة والندم، والتسليم بأن هناك خطأ جرى، وما كان يجب أن يتجرّأ الفلسطينيون في المقاومة. لذا؛ تستعرض إسرائيل قصداً جرائم وحشية، منها تكرار استهداف المستشفيات، وقوافل الإغاثة والتجمّعات التي تنتظر المساعدات، لأنها تريد إيصال رسالة إلى كل المخازنين إلى خيار تقرير المصير، بأنكم عاجزون ومنهزمون، وتوجّه الرسالة نفسها إلى كل من يساندهم، في حرب أوسع من أراضي قطاع غزّة، تقودها إسرائيل وحلفاؤها وتستهدف بسط الهيمنة وهزيمة ثقافة المقاومة، ضمن مشروع إمبريالي تقليدي، كما تنفصل حرب التجويع عن صور الضغط على المقاومة إلى أقصى درجة، ووضعها في اختيارات كلها صعبة، القبول بهدنة مؤقتة أو استمرار أشكال العدوان المختلفة، وبينها التجويع، والذي نفذ بطرق عدّة، منها الهجوم على «أونروا» والتحريض على قطع تمويلها، وتعطيل أعمال الإغاثة والمناصرة، وكذلك نفي وجود هيئات تابعة لحركة حماس تتولّى توزيع المساعدات. ولإبعاد «أونروا» و«حماس» معاً، طرحت خيارات عدة، منها إسقاط المساعدات جوّاً، والذي لا يحلّ المشكلة، بل يكرّسها، عبر القبول بسياسة الأمر الواقع، واشتراطات الاحتلال، فيما يتعلق بكمية المساعدات أو نوعيتها، وتوقيتها. ويشير هذا المشهد إلى أنّ الجميع عملياً يسلّم بالأمر الواقع الذي تفرضه تل أبيب، بما في ذلك منع وصول المساعدات جوّاً وبحراً وبرّاً من دون اشتراطاتها.

ومع شجب وإدانة ومعارضة لفظية لحرب التجويع، يغيب موقف عملي يضغط في اتجاه وقف الجريمة التي تتصل بأهداف عسكرية وسياسية، منها التهجير، والذي أصبح عملياً خيار مئات الآلاف، بعدما أصبح القطاع طارداً للسكان، يفتقد الحدّ الأدنى لمتطلبات المعيشة، فضلاً عن كونه يمهّد لفرض قوى جديدة في القطاع، على مستويين، سياسي واجتماعي، لملء الفراغ، ويحاول معالجة الأزمة الإنسانية، ويتولى تنظيم شؤون القطاع، وفي ذلك تأتي محاولات تلميع كيانات وشخوص تعود بالحياة إلى ما قبل 7 أكتوبر.

(كاتب مصري)

كاريكاتير

عماد حجاج

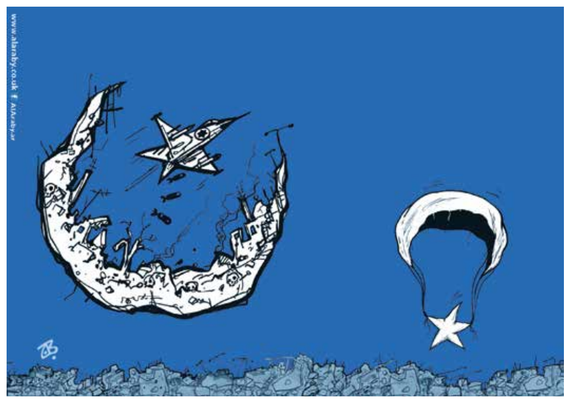

إمارة الأسد الصغرى

سميرة المسالمة

لم تختلف الشعارات الثورية التي يرفعها السوريون في إدلب وريف حلب، وهي مناطق حكم جبهة تحرير الشام (جبهة النصرة سابقاً)، عن التي عادت منذ أشهر بصوت قوي تؤرّق نظام الرئيس السوري بشّار الأسد في السويداء ودرعا، وبعض المناطق التي تحت سيطرة أجهزته الأمنية وقمعها. ولعلّ تزامن التظاهر في أنحاء مختلفة للمطالب ذاتها، ومن نظر يمكن القول إنها متشابهة، أو أن بعضها تخدم بعضاً، يوضح أن المجتمع السوري لا يزال عصيّاً على استهداف وحدته الشعبية التي عملت أطراف عديدة (منها محلية أو متدخّلة في الصراع السوري) على زعزعتها واستدراجها إلى خانة الاحتراب الطائفي، أو القومي. وسواء كان التنسيق أحد أسباب وحدة الشعارات مع اختلاف الجهة المرفوعة ضدّه، أو جاء نتيجة طبيعية لإدراكات السوريين مخاطر الصمت عن الانتهاكات الممارسة بحقهم من جهات الأمر الواقع، يؤكّد ثبات مشروعية أهداف الثورة وأسبابها والحاجة إلى استمرارها.

وإذا كان شعار الحرية من كل الأطراف، وبوجه كل السلطات، لا يزال صالحاً لاستخدامه، فإن تأكيد وحدة الشعب السوري، بكل قومياته وانتماءاته الدينية والمرجعية، يشكل حجر الأساس الذي تقوم عليه الدولة الوطنية، في مواجهة مشروع تصفية التنوع الثري الذي يميز سورية، لمصلحة المجتمع «المتجانس» الذي عمل عليه الرئيس السوري، أو الذي يخدم ديكتاتورية الحاكم، سواء المستتر بعلمانية الحزب الواحد، كحال الأسد، أو القادم من أيديولوجية السلفية الدينية، كحال أبي محمد الجولاني، وكلاهما استخدم المنظومة الدينية لتطويع الأفكار الشعبية، واستخدامها أداة قمعية لمصلحة أهدافه السلطوية، لاستمرار هيمنتهما على الناس واستغلالهم، فحيث يسمّيها النظام قانون الدولة، تسميها جبهة النصرة، ومن هم تحت عباءتها سراً أو علانية، «حكم الشريعة». المواجهة التي يعلنها السوريون ضد الأنظمة الحاكمة بقوة السلاح والدعم الخارجي هي، في حقيقتها، مواجهة مع واقع ما آلت إليه ثورة السوريين التي انطلقت من درعا في مارس/ آذار 2011، وهي ثورة شعبية سلمية تنادي بالحرية والكرامة وحقوق المواطنة للجميع، وتوسّعت لتشمل كل المناطق السورية، ومرّت بمراحل عمرية وتحولات جذرية ثقافية ومجتمعية وسلطوية، قبل أن تعود لتخبو تحت صوت المدافع والقصف، وتترك الساحات للصراع المسلح والمرجعيات الأيديولوجية والقومية، والارتهانات الخارجية، أي إننا اليوم أمام استدراك لعمل سابق استحقّ فتح ملفاته، والعمل على إزاحة ما لحق به من زوائد واجبة الاستئصال بيد القوى الوطنية وعلى أسس العمل المشترك والتنسيق المجدي.

في المقابل، لا بد من ملاحظة المتغيرات على الساحة الدولية، فقد خسرت الثورة السورية خلال 13 عاماً من عمرها وحدانيتها بوصفها حدثاً يومياً يتصدّر الأخبار العالمية، وخرجت سورية بكل ماسيها من أولويات العمل في منظّمات المجتمع الدولي لأسباب عديدة، ليس خارجية فقط، باعتبار تعدّد جبهات الحرب المفتوحة عالمياً، وأهمها الحرب الروسية على أوكرانيا، والصراع الداخلي في السودان، والآن الحرب الإسرائيلية على غزّة ومداخلات إيران عبر وكلائها الميليشياوية في اليمن والعراق ولبنان وسورية، وكذلك توالي الأزمات والكوارث، من أزمة كورونا التي قطعت أوصال التواصل بين مختلف الدول نحو عامين متتاليين، إلى الكوارث الطبيعية من زلازل وطوفانات وبراكين، زادت أعداد الضحايا والمحتاجين، وكسرت حواجز السياسة لمصلحة الإغاثة، كما حدث في الزلزال الذي أصاب تركيا وسورية (قهرمان مرعش) في 6 فبراير/ شباط 2023، وتجاوز عدد ضحاياه خمسين ألف قتيل وعشرات الآلاف الجرحى وتدمير كامل لمدن وقرى، وحظي النظام السوري خلاله على فرصة قطع سلسلة العقوبات الأميركية والغربية والعربية المفروضة عليه، ولا يزال يستثمر ذلك عربياً على الأقل.

في مكان مقابل للأسد، استطاع الجولاني الذي سيطر على إدلب (بعد انسحاب مريب من مقاتلي حركة أحرار الشام التي كانت «محسوبة» على المعارضة السورية عام 2017) أن يشكل إمارته التي كانت إحدى المناطق المشمولة باتفاق خفض التصعيد من الدول الراعية لمسار أستانة (روسيا، إيران، تركيا) معتمداً، من جهة، على صمت إقليمي غير بريء تجاه توسّعه وتمدديه على فصائل كانت مدعومة من تركيا. كما مارس، من جهة ثانية، إحكام قبضته الأمنية المتسرّة بحكم الشريعة على القاطنين في إدلب وسائر مناطق سيطرته، ومن خلال ذلك، أو تحت تلك الأحكام، ناهض مطالب الثورة في الحرّيات العامة، والخاصة، والدولة المدنية، والحقوق المواطنية، وهي المعادل لما فعله النظام من تقييد للمواطنين من خلال قانون الطوارئ، ولاحقاً قانون مكافحة الإرهاب، أي إن إمارة الجولاني استخدمت أساليب الحكم الأمني نفسها لتثبيت حكمها على الناس، وتشكيل دويلتها داخل الدولة السورية وعلى نهج سلطتها.

المواجهة الشعبية المتجددة، مع كلا نظامي الأسد والجولاني، تنبع من المطالب الثورية نفسها التي عبّر عنها السوريون، والذين يحيون ذكرى انطلاقة ثورتهم للعام الثالث عشر على التوالي، ولكنها هذه المرّة مع وعي مسبق للأثر السلبي لما يشكله الاعتماد على الارتهان لمصالح الدول التي يمكن أن تلوّح لهم بالدعم، أو الاحتواء لهذه المظاهرات، وهو ما تعبّر عنه لافتات ومظاهرات الشعبية في كل من السويداء ودرعا وأرياف حلب وإدلب.

> المواجهة الشعبية المتجددة، مع كلا نظامي الأسد والجولاني، تنبع من المطالب الثورية نفسها التي عبّر عنها السوريون

وفي المقابل، لا يمكن تجاهل هذا التناغم، في طرق الردع أو تجاهل الردّ الذي ستتنتهجه كل من أجهزة الأمن السورية في نظام الأسد، وجهاز الأمن العام في حكومة الجولاني، على المظاهرات التي تتوسّع تباعاً في المحافظات السورية، تلك الردود التي تتشابه إلى درجة التطابق، من اعتراف أعلى السلطات بوجود أخطاء فردية لدى هذه الجهات عند ممارستها وظيفتها الأمنية، خصوصاً ما يتعلق بالاعتقال والتعذيب «هذا ما قاله الجولاني، أخيراً، وقد سبقه إلى ذلك الأسد»، إلى التمسّك بها كبيانات تحمي وجود الأنظمة، وكأننا أمام إمارة خرجت من عباءة إمارة، وكلاهما يحاول مواجهة الغضب الشعبي بتمرير الزمن، والرهان على الملل، أو التجويع الممنهج للمناطق الثائرة. يمكن لكل بيان يصدر من الفاعلين على الأرض أن يلقي تعاطفاً ومناصرة من السوريين الأحرار، لكنه حتماً يحتاج إلى كيان سياسي يستثمر في هذا الإجماع الشعبي، ويسعى من أجله، وتحت رقابته، للمضي إلى التغيير المنشود وإقامة الدولة الديمقراطية، وفي ظل اعتقاد الغالبية بغياب هذا الكيان، أو في ظل تجاهل الكيانات القائمة لأهمية ما يصدر عن الشعب، والعمل من أجل تحقيق مطالبه بعيداً عن محسوبيات المموّلين، يبقى السؤال كيف يثمر هذا الحراك أو من يستثمر به؟

(كاتبة سورية)

من احتجاج ضد هيئة تحرير الشام في إدلب، 1 مارس 2024 (معاوية اطرش/فرانس برس)

الحركات النسوية وغزّة

المهدي مبروك

مرّ يوم المرأة العالمي وطيفٌ واسعٌ من نساء العالم يرزحن تحت نير الاستغلال والحيف والقسوة والحروب. تحظر نساء غزّة تحديداً مثالاً متوهّجاً لهذه المعجزة: قمع استعمار استيطاني باطش وإرادة صلبة لا تلين. قلّةٌ هي الحركات النسوية التي أصدرت إشارات مساندة إلى نساء غزّة. ومع ذلك، كان طعم هذا العيد للمرأة دالّاً في مذاقه المرّ على معاناة نساء غزّة.

تعجز حواسّ حركات نسائية عديدة في العالم عن التقاط وجع النساء الفلسطينيات، وهو عجزٌ ناجمٌ عن التشريط الذي يخضعن له خلال عقود التنشئة التي خضعن لها خلال تربيتهنّ وتعليمهنّ، فضلاً عن حلقات النضال الجمعوي أو الحزبي التي خُضنه.

ارتبطت نشأة الحركة النسائية شديد الارتباط بالكفاح ضد أشكال الاستغلال الرأسمالي. ومع ذلك، انحرف النضال النسوي لاحقاً حين حوّلن قضيتهنّ التي تستحقّ التعبئة هي النضال ضد الهيمنة الذكورية وتسلّط الرجال عليهنّ. لقد اجتمع، لأول مرّة في مثل هذا اليوم من سنة 1908، ما يناهز عن خمسة عشر ألف امرأة أميركية للتظاهر من أجل ثلاثة مطالب كبرى، هي تقليص ساعات العمل وأجور عادلة وحقّ الانتخاب. ولقد تبنّى العوالم والوجندرفي في تجريد كوني. ولم يكن من المصادفة أن رأّدات هذه التيارات النسوية المنتفضة على النسوية البيضاء «ملوّنات» منتميات إلى إثنيات مختلفة، أي «تابعات»، حسب التصوّر الغربي الرأسمالي. وقد شكّل ذلك انشقاقاً على تقاليد الحركة النسوية، كما خطّئتها النساء الغربيات البيضاوات. مع اندلاع الحرب على غزّة في بداية شهر أكتوبر الماضي، ظلّت أصوات النساء اللواتي ساندن حركة المقاومة، أو نساء غزّة تحديداً، استثناءً. وتعرّضت عميدات جامعات أميركية عديدة لضغوط قوية، ما قادهنّ لاحقاً إلى الاعتذار أو الاستقالة أو الإقالة. تمثل حالة منظرة الجندرة الفيلسوفة جوديت بالتر استثناءً دالّاً، وهي التي ذهبت بعيداً، وحلّقت خارج السرب حين دانت أخلاقياً ما قامت به إسرائيل واعتبرته بلا مبرّر. ورغم أنها دانت أيضاً حركة حماس، فقد سلّطت عليها حملات إدانة واسعة وصلت إلى حد التهديد، ولكنها رغم ارتباكها، ظلّت عموماً محافظة على موقفها الأخلاقي، ولم تذهب إلى تشريع ما يجري من حرب إبادةٍ بشعة. لا تحجب لا حتى هذه الخصوصيات حقيقة أن النساء في غزّة حالة نادرة لا تخلو من معضلات أخلاقية وأدبية، فهنّ ضحايا للهيمنة الاستعمارية الاستيطانية، وقد نالهن جزاء ذلك تعسّف لا نظير له، وأشكال غير مسبوقة من التنكيل. ومع ذلك يتعرّضن، بين حين وآخر، لأشكال مختلفة من الهيمنة الذكورية الرجالية داخل المجتمع الفلسطيني ذاته. وقد نبّهها في سبعينيات القرن الماضي المفكر الفلسطيني هشام شرابي من خطورة تناسي هذه المسألة، حين نحت مفهوم البنية البطريركية لتفسير إخفاقات حركة التحرّر الفلسطينية والعربية عموماً، وهي التي تقدّم سردية ذكورية عن النضال والمقاومة الفلسطينيين.

ستمنحنا الحرب على غزّة الفرصة لنحت مفاهيم قد لا تكون ضرورة قائمة على ابستيمياء غربية.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

> النساء في غزّة حالة نادرة لا تخلو من معضلات أخلاقية وأدبية، فهنّ ضحايا للهيمنة الاستعمارية

باتلر استثناءً دالّاً، وهي التي ذهبت بعيداً، وحلّقت خارج السرب حين دانت أخلاقياً ما قامت به إسرائيل واعتبرته بلا مبرّر. ورغم أنها دانت أيضاً حركة حماس، فقد سلّطت عليها حملات إدانة واسعة وصلت إلى حد التهديد، ولكنها رغم ارتباكها، ظلّت عموماً محافظة على موقفها الأخلاقي، ولم تذهب إلى تشريع ما يجري من حرب إبادةٍ بشعة. لا تحجب لا حتى هذه الخصوصيات حقيقة أن النساء في غزّة حالة نادرة لا تخلو من معضلات أخلاقية وأدبية، فهنّ ضحايا للهيمنة الاستعمارية الاستيطانية، وقد نالهن جزاء ذلك تعسّف لا نظير له، وأشكال غير مسبوقة من التنكيل. ومع ذلك يتعرّضن، بين حين وآخر، لأشكال مختلفة من الهيمنة الذكورية الرجالية داخل المجتمع الفلسطيني ذاته. وقد نبّهها في سبعينيات القرن الماضي المفكر الفلسطيني هشام شرابي من خطورة تناسي هذه المسألة، حين نحت مفهوم البنية البطريركية لتفسير إخفاقات حركة التحرّر الفلسطينية والعربية عموماً، وهي التي تقدّم سردية ذكورية عن النضال والمقاومة الفلسطينيين.

ستمنحنا الحرب على غزّة الفرصة لنحت مفاهيم قد لا تكون ضرورة قائمة على ابستيمياء غربية.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

أن تنتصر فلسطين في برلين

معن البياري

كان الذي شهده مهرجان برلين السينمائي الأسبوع الماضي بشأن فلسطين باهراً. كان انتصاراً لها على المنظور الصهيوني، المتحكم (ربما) في رؤية السلطة في ألمانيا في الموضوع الفلسطيني، وكذا القوى النافذة العتيّة هناك بالثقافة والفنون. وفي الوسع البناء، كثيراً على الهزيمة المشهودة التي تلقّتها، هذه وتلك... باختصار، لم يكن في مقدور إدارة المهرجان، رفيع المكانة بين تظاهرات السينما في العالم، وكذا المؤسّسات الداعمة له، الحكومية والمحلية الألمانية، أن تصنع شيئاً أمام حضور الكوفيات الفلسطينية على أكتاف فنانين وضيوف ومدعوين في المهرجان. وقد مثل هذا الحال، وكذا الدعوات في أثناء فعاليات المهرجان، وقف الحرب في غزّة. وهذان أمران لا تطيقهما السلطات في برلين، ولا يستحسنهما القائمون على التظاهرة السينمائية الكبرى، ليس بزعم أن المهرجان فنّي (نصرة أوكرانيا ونذم إيران مُباحان في دورات سابقة)، وإنما لأن الانتصار لعدوان إسرائيل على الشعب الفلسطيني في غزّة مقيم في مدارك هؤلاء، قناعة بأنّ دولة الاحتلال تدافع عن نفسها. وقد أصاب الزميل سليم البيك في ذهابه إلى أن حفل ختام المهرجان كان أقرب إلى مناسبة تضامنية عالمية مع القضية الفلسطينية، فكلماتٌ فيه قويلت بالتصفيق، وقد هاجمت ما تقترفه إسرائيل في غزّة، على ما فعلت عضو لجنة التحكيم الممثلة الإيطالية جازمين ترينكا، والنجمان الأميركيان، بن راسل وجاي جوردان، اللذان تسلّما جائزة فيلمهما وهما يرتديان الكوفية الفلسطينية، وسمع الحضور من بن راسل أنهما مع الحياة وضد الإبادة، وينداديان بوقف إطلاق النار. وهتفت الفرنسية السنغالية ماتي ديوب، وهي تتسلّم جائزة الدب الذهبي عن فيلم وثائقي لها، أنها تقف مع فلسطين.

ليس هذا المشهد عادياً، ولا سيما أنه في برلين، حيث الحكومة الأشدّ دعماً لإسرائيل في العدوان الجاري. وليس عادياً من صحافةٍ يفترض فيها شيءٌ من الحياء، عندما نعرف أنّ صحيفة محلية هناك تُسائل (!) مديرة المهرجان عن سبب اختيار الممثلة الكينية المكسيكية، لوبيتا نيونغو، رئيسةً للجنة التحكيم، وهي التي وقّعت، مع آخرين، على رسالة إلى الرئيس بايدن، تطالبه بالضغط على إسرائيل لوقف إطلاق النار. ولا يُقابَل بغير السخرية أن تضطر وزيرة الثقافة الألمانية، كلوديا روث، إلى الدفاع عن «تصفيقها» في حفل الختام، عند نيْل فيلم «لا أرض أخرى» جائزة أفضل فيلم وثائقي، بالقول إنها صفّقت للمخرج الإسرائيلي، يوفال أبراهام، وليس لشريكه الفلسطيني، باسل عدرا، بعد أن طالبتها الصحافة بالاستقالة، بسبب كلماتٍ ألقيت في الحفل «حملت كراهية عميقة لإسرائيل» و«لم تهاجم إرهاب حماس». وكان بديعاً من الفلسطيني عدرا دعوته، في الحفل، ألمانيا إلى وقف تصدير الأسلحة إلى إسرائيل، وكان عظيم الأهمية من أبرأهام إدانته، أمام الحضور «نظام الفصل العنصري» الذي يعانيه الفلسطينيون، مشيراً إلى «عدم المساواة بينه وبين زميله عدرا في الضفة الغربية» وكذا دعوتُه إلى وقف إطلاق النار في غزّة.

من شواهد وفيرة على انتصار فلسطين في مهرجان برلين الاستفزاز الذي استشعرته إدارته، وجعلها تُصدر بياناً «تتبرّأ» فيه من «الانتقادات الأحادية» لإسرائيل في أثناء فعاليات العروض وحفل الختام الذي أعلنت الوزيرة فتح تحقيق في الذي جرى فيه (!). وجاء عظيم الدلالة أن يرفض المدير الفني للمهرجان، الإيطالي كارلو شاتريان، مع مسؤول البرمجة الكندي مارك بيرانسون، في بيان لهما «اللاس

في سقطات الإعلام الغربي وسقوطه

نهاد أبو غوش

على امتداد سنوات الصراع الطويلة مع المشروع الصهيوني وتجسيده في دولة إسرائيل، اعتدنا سماع التبريرات والمواقف المعلّبة والجاهزة في الانحياز إلى دولة الاحتلال وروايتها من القيادات السياسية ووسائل الإعلام في الغرب، بالقول إن «إسرائيل دولة ديمقراطية، وتجري فيها انتخابات». ويمكن لهذا الموقف أن يتخذ بعداً تنظيرياً مضلّلاً ومزيّفاً من خلال الادّعاء بوجود «قيم مشتركة» بين الدول الغربية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة، وإسرائيل، وبات هذا الزعم حجر الأساس، ولازمة في تصريحات الرؤساء الأميركيين وتبريراتهم ودعمهم المطلق إسرائيل.

تكرّر هذا الادعاء في مئات المواقف التي تبرّر الانحياز الغربي الجارف إلى إسرائيل، وحربها على الشعب الفلسطيني في غزّة، بكل ما تخللها من فظائع وجرائم حرب موصوفة، ومنها جريمة الإبادة الجماعية. وانعكس ذلك بفجاجة وصُراح في وسائل الإعلام الغربية من محطّات تلفزة وصحف كبرى ووكالات أنباء، وصولاً إلى وسائل التواصل الاجتماعي. وامتد الانحياز إلى مواقف شخصية لأبرز المذيعين ومقدّمي البرامج والعاملين في وسائل الإعلام هذه انسجاماً مع مواقف إداراتهم ومشغّليهم، بحيث بات السؤال التقليدي السمج، والذي يكاد يتكرّر في كل لقاء مع شخصيات عربية وفلسطينية، وعالمية أيضاً، معارضة للحرب «هل تدين الفظائع التي قامت بها حماس في السابع من أكتوبر؟»، وبطريقةٍ توحي بأن التسليم المسبق بهذه الإدانة شرط مسبق لأي حوار منطقي، بل شرط لمنح المتحدّث فرصة إبداء رأيه.

لسنا في حاجة إلى إقامة البرهان على أن الديمقراطية الغربية وانتخاباتها ليست دليلاً حاسماً على نزاهة الأنظمة السياسية الناشئة عن هذا النوع من الديمقراطيات، ولا على التزامها المبادئ والقيم التي تردّدها عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، فالتاريخ يزوّدنا بعشرات الأمثلة عن أنظمة استعمارية منتخبة وديمقراطية هي الأخرى، مارست أقسى أنواع الاستعباد والقمع، وارتكبت أشدّ أنواع الجرائم والمظالم لدى استعمارها شعوب إفريقيا وآسيا وبلداننا، وعن انحراف هذه الديمقراطيات « المنتخبة» إلى أنظمة نازية وفاشية معادية لكل قيم الإنسانية ومبادئ العدل والإخاء والمساواة بين البشر، وصولاً إلى الجريمة الماثلة أمام العالم بأسره لدولة الاحتلال في قتل عشرات آلاف المدنيين الفلسطينيين، وتدمير المدن والحضارة والتاريخ، وتحويل الأراضي الفلسطينية إلى أكثر معسكر اعتقال في العالم، وتجويع الناس وتعطيشها وحرمانها من أبسط مقوّمات الحياة.

نفهم مواقف القيادات السياسية، والدوائر والهيئات والمؤسسات والأفراد الذين يقودون الدول الغربية ويمثلونها، أنها تعبير عن المصالح العميقة، السياسية والاستراتيجية والاقتصادية لهذه الدول، التي لا تقتصر على دول الغرب الجغرافي، بل تشمل الغرب الثقافي، واقتصاديات السوق، وامتداداته في آسيا وأوقيانوسيا، فهذه الأوساط ترى في إسرائيل ربيبتها وصنيعتها وقلعتها المتقدّمة وأداتها الضاربة للحفاظ على المصالح الاستراتيجية لدول الغرب الاستعماري وشركاته، ومواصلة الهيمنة على مصادر المواد الخام، واستباحة الأسواق، والسيطرة على طرق التجارة، فضلاً عن الأحلاف العسكرية والأمنية. ولذلك كانت لإسرائيل أدوار وظيفية عدوانية لا تقتصر على جيرانها، بل تشمل أيضاً كل التهديدات التي تطاول الغرب. ولا يخلو الأمر أيضاً من نزعات عنصرية استعمارية ترى في إسرائيل واجهة للغرب الأبيض في مواجهة الشرق العربي والمسلم المتوحش، وهي نزعاتٌ نرى بعض تجلياتها في معاداة اليمين الشعبوي والمتطرّف في أوروبا للمهاجرين والأقليات بالتوازي والتلازم مع دعم سياسات الاحتلال الإسرائيلي وإجراءاته تجاه الشعب الفلسطيني.

> الانحياز المسبق والأعمى لوسائل الإعلام، كما في تغطية الحرب على غزّة والموقف من القضية الفلسطينية سقوط مهني وأخلاقي تغذّيه المصالح والحسابات السياسية

> يبرُز الانحياز في أسوأ صوره وأكثرها ابتعاداً عن الأصول المهنية في البرامج الحوارية التي يديرها إعلاميون منحازون وموالون لإسرائيل

لكن الغريب والمريب أداء المؤسّسات الإعلامية الكبرى في الغرب، والتي أشبعت جمهورها والعالم بأسره تنظيراتٍ وأحكاماً عن المعايير المهنية الصارمة، من نزاهة وموضوعية وحياد ودقة وتحقُّق من المعلومات قبل نشرها، وغيرها من مبادئ وأخلاقيات يتعلمها طلاب الصحافة في يومهم الأول. لقد غادرت هذه المؤسّسات حياديتها ومهنيتها، وخالفت مبادئها، وانحازت إلى أهوائها ومصالح أصحابها وممولّيها، فتبنّت الروايات الإسرائيلية الملفقة من دون تحقق وتمحيص، وساهمت في نزع الصفة الإنسانية عن الفلسطينيين وفي شيطنة مقاومتهم وتاريخهم ووجودهم، ومن ثم إنكار حقوقهم الوطنية والمدنية، وتبرير الفظائع التي تُرتكب بحقّهم بما في ذلك جرائم الإبادة.

ثمّة قوائم لا تُحصى من أمثلة الانحياز، ومخالفة المعايير المهنية في أداء وسائل الإعلام، ومن هذه الوقائع الحديثة إغفال أسباب إحراق الطيار الأميركي آرون بوشنيل نفسه وسط صرخاته المنادية بالحرية لفلسطين، ورسالته الواضحة والصريحة والناضجة التي كلفته حياته، بأن ما سيقوم به من فعل قاس تجاه نفسه لا يُقارن بما يتعرّض له الفلسطينيون في غزّة من جرائم إبادة. وشمل تجاهل وسائل الإعلام ذكر سبب ما أقدم عليه بوشنل كلّاً من صحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست، وشبكتي سي أن أن وفوكس، ووكالة أسوشييتد برس، في حين حظي الخبر بإشارات مقتضبة للحرب بين «إسرائيل وحماس وغزّة» في بعض الصحف البريطانية والفرنسية تحديداً، ومال الاتجاه الأغلبي لدى وسائل الإعلام الغربية إلى وضع القضية في حدود الفعل الفردي ذي الدوافع الشخصية المعزولة عما يجري في غزّة.

رافق انحياز وسائل الإعلام الغربية إلى إسرائيل الحرب على غزّة منذ يومها الأول من خلال تبنّي (من دون الحد الأدنى المهني من ضرورات التحقق) التلفيقات الإسرائيلية بشأن قطع الرؤوس وذبح الرضّع وإحراق الأطفال في الأفران واغتصاب النساء وقتل اليهود لمجرّد كونهم يهوداً. وعلى الرغم من أن هذه المزاعم لم تصمد يوماً واحداً، لم تتراجع وسائل الإعلام تلك عن رواياتها، ولم تعتذر إلى جمهورها عمّا اقترفته من خيانة لمبادئها المهنية وللحقيقة. وقد تواصلت مواقفها المحابية لإسرائيل والمناوئة للفلسطينيين من خلال نمط التغطية الذي يُفرد مساحاتٍ موسّعة لعرض الرواية الإسرائيلية، ويختزل تاريخ الصراع والقضية إلى ما جرى في 7 أكتوبر من دون صلة بالاحتلال وتاريخ الصراع ومعاناة الفلسطينيين على امتداد العقود الثمانية الماضية. وكذلك في مجال استخدام المصطلحات التي تصف الصراع، ثمّة قاموس منتقى لمفردات هذا الصراع التي توحي بأن الفلسطينيين يموتون من تلقاء أنفسهم، في حين يُقتل الإسرائيليون على أيدي الفلسطينيين. وأن الضحايا الفلسطينيين مجرّد أعداد وأرقام وإحصائيات، في حين أن لكل فرد من الضحايا الإسرائيليين حياته الشخصية وبيئته العائلية الحميمة، وابتساماته وسط أصدقائه، وأحلامه التي قطعها الموت.

يمثل نموذج الصحفية عنات شفارتس نموذجاً شائعاً لتمرير الانحياز وكأنه شيء عادي، فهذه الصحفية في «نيويورك تايمز» نقلت أخبار «الفظائع والأهوال» عما جرى يوم 7 أكتوبر كما استقتها من مصادر رسمية إسرائيلية، من بينها رئاسة الوزراء والمتحدّث العسكري ومنظمة زاكا الدينية اليهودية المعنية بجمع الجثث، والتي ثبت تلاعبها بالوقائع لتبرّر حصولها على مزيد من الأموال. ولم تكلف الصحفية نفسها عناء التدقيق، حتى بعد أن نشرت الصحف الإسرائيلية عينها شهادات وتحقيقات تنسف رواية الفظائع هذه. لكن الصحيفة لم تتخذ أي إجراءات بحق الصحفية التي واصلت المبالغة في انحيازها، إلى أن ضُبطت بالجرم المشهود عبر تأييدها العلني تحويل غزّة إلى مسلخ لتعذيب الفلسطينيين، وهو ما دعا متابعين للصحيفة إلى تقديم شكوى عليها ليتبين أنها خدمت في الجيش الإسرائيلي وتتابع دورها السياسي والأمني من موقعها الجديد صحفية.

يبرُز الانحياز في أسوأ صوره وأكثرها ابتعاداً عن الأصول المهنية في البرامج الحوارية التي يديرها إعلاميون منحازون وموالون لإسرائيل، كما فعلت جوليا هارتلي التي اشتهرت بأنها الصحفية الأكثر فظاظة وعدوانية وابتعاداً عن أخلاق المهنة وآداب الحوار. ويتكرّر الانحياز في واحد من أكثر البرامج الحوارية البريطانية شهرة الذي يقدمه بيرس مورغان، ومع أنه أقلّ صلافة من هارتلي، لكنه يصر في كل لقاء على «التحقيق» مع ضيفه بشأن الموقف من 7 أكتوبر، وكأن إدانة «حماس» شرطٌ لأي حوار موضوعي.

من المفهوم أن لكل إنسان أخطاءه الشخصية والمهنية، صحفياً كان أو طبيباً أو سائق شاحنة، وهذا ما يمكن أن نعده بمثابة «سقطات» فردية يمكن احتمالها أو تعويضها. وفي مهنة الصحافة، وبموجب أخلاق المهنة العامة وسياسات التحرير لكل مؤسّسة، من واجب الصحفيين والمؤسّسات الإعلامية التي يعملون فيها المسارعة إلى تصويب الأخطاء فور وقوعها، وأن تنصف من تطاولهم هذه الأخطاء، وأن تحاسب من يتعمّدون ارتكابها أو يكرّرون ذلك من دون حذر أو تبصّر، فمن حقّ الجمهور أن يحصل على معلوماتٍ صحيحة ونزيهة لقاء ما يدفعه لوسائل الإعلام. أما الانحياز المسبق والأعمى لوسائل الإعلام، كما هي حالة تغطية الحرب على غزّة والموقف من القضية الفلسطينية، فلا يمكن احتسابه مجرّد سقطات وهفوات شخصية، بل هو سقوط مهني وأخلاقي تغذّيه المصالح والحسابات السياسية.

(كاتب فلسطيني)

عن الكفاءات الجزائرية في المهجر

محمد سي بشير

تطلّ علينا وسائل الإعلام، في الجزائر، بين الفينة والأخرى، ببرامج عن جزائريين برزوا في ميادين شتّى في المهجر، في أميركا وأوروبا والخليج، وهم، بحقّ، كفاءات جزائرية تعلّم أغلبهم في مدارس البلاد وجامعاتها، ثمّ سافروا ليبرزوا مهاراتهم، ما يثير الغرابة ويدفع إلى طرح إشكال: لماذا سافر هؤلاء ولماذا أتيح لهم الظّهور في الخارج وليس في بلدهم، الجزائر؟

تحاول المقالة البحث في أسباب هجرة الكفاءات أو ما يُعرف، في لغة الموارد البشرية، بالمادّة الرّمادية، فثمّة تداعيات كبيرة على فقدان الجزائر فرصة الاستفادة من كفاءاتٍ جرى تأهيلها في البلاد، ولا يتمّ الاستفادة من استثمار هو الأغنى، الاستثمار في الإنسان، فهل مردّ الإشكال السّياسة العامّة للتّشغيل، للتّكوين، بمعناه الواسع، أم ثمّة أسبابٌ أخرى، يجب البحث عنها لوقف النّزيف وإشراك تلك الكفاءات في بناء نموذج الإبداع والابتكار، هنا، وليس لمصلحة الآخرين، مع الاعتراف بأنّ التواصل بين مختلف البيئات أو العمل في ميادين بعينها، في الخارج، قد يكون، على المدى المتوسّط، مفيداً للوطن ولعجلة التقدّم فيه من خلال تراكم التّجارب، بصفة خاصّة؟ هناك توطئة لا بدّ منها لتناول مثل هذا الموضوع، وهو الخلفيّة السّوسيولوجية التي يمكن رؤية الإشكالية من خلالها، حيث ينقسم المجتمع من حيث تركيبته إلى ثلاث طبقات: الأثرياء، الطّبقة المتوسّطة، وتليهما، في قاع المثلّث الاجتماعي، الطّبقة الفقيرة. ولا يمكن، وفق رؤى علماء الاجتماع، لأيّ مجتمع أن تستقيم تركيبتُه وينعم بالحركيّة والحيويّة، إذا لم يكن ثمّة اهتمام بالطبقة المتوسّطة التي تُعرف برمّانة المجتمع. وكلّما كانت أقرب إلى الحرّية والكرامة في مؤشّرات العيش وتوفير فضاءات الابتكار والإبداع أقرب، كانت تلك الطّبقة قاطرة التّغيير والإبداع في المجتمع، بما تزخر به من كفاءات ونخبة في مختلف الأصعدة، وهو ما كانت الجزائر تتوفّر عليه إلى زمن قريب، بفضل منظومة تربوية وجامعية كانت ذات كفاءة في التّكوين وتخريج نوعي للكفاءات، من أمثال الذين انتقلوا إلى الخارج وبرعوا فيه، في تلك الميادين، بل أضافوا إلى تلك المهارات مهارات أخرى اكتسبوها في بيئات عمل وبحث جيّدة، وصلت بهم إلى الصّيت الذي أصبحوا عليه.

> لا يمكن إغفال الحديث ونحن نتحدث عن إشكالات هجرة الكفاءات، الإشارة إلى التعقيدات البيروقراطية التي تحول دون تجسيد مشاريع إنشاء مؤسسات تكون حاضنة للأفكار

> لا يمكن لأيّ مجتمع أن تستقيم تركيبته وينعم بالحركية والحيوية، إذا لم يكن ثمة اهتمام بالطبقة المتوسطة التي تُعرف برمّانة المجتمع

نصل إلى ذلك الاهتمام الإعلامي لكفاءات جزائرية برزت في الخارج، ولم تجد مكاناً لها تنخرط، من خلاله، في مخطّط بناء الاقتصاد الجزائري، ذلك الاهتمام الذي لا يُبرز إلا منجزات تلك الكفاءات في الخارج، من دون أن يطرح الإشكالية الأجدر بالبحث معهم، وهي الظّروف التي دعتهم إلى ترك البلاد والهجرة إلى مواطن الكشف عن مهاراتهم أو، لنبسّط الأمر، أكثر، لماذا لم تعقد تلك القنوات الإعلامية نقاشات/ جلسات بقصد الكشف عن الإشكالات التّي يطرحها موضوع هجرة الكفاءات، على غرار الاستثمار في الموارد البشريّة من خلال مؤشّرات التّكاليف (تصل تكاليف تكوين إطار في أيّ ميدان تقني إلى ما يربو على مائة ألف دولار وقريب من ذلك المبلغ تكاليف تكوين طبيب عام قد تُضاف إليه حوالي 20 ألف دولار إذا كان ذلك الطبيب متخصّصاً). أسباب ضعف أداء بيئة البحث عندنا، تداعيات عدم إيجاد الظروف الجاذبة/ الحافظة لمواردنا البشرية ذات الكفاءة العليا، أسباب تردّي مستويات المنظومتين التّربوية والجامعية، لماذا لا توفّر بيئة العمل عندنا إمكانية الأجور المرتفعة في مستوى مهارات تلك الكفاءات ومردودها؟

كما لا يمكن إغفال الحديث، هنا، ونحن نتحدّث عن إشكالات هجرة الكفاءات، الإشارة إلى مناخ الأعمال والتّعقيدات البيروقراطية التي تحول دون تجسيد مشاريع إنشاء مؤسّسات تكون حاضنة للأفكار ومنتجة للابتكار بشتّى أنواعه، خصوصاً منها ما أضحى يُعرف بالذّكاء الاصطناعي أو الابتكار الافتراضي والمعلوماتي بكل ما يتوفّر عليه من متغيّراتٍ تمسُّ حياة النّاس اليومية.

في الحقيقة، تدعو تلك الإشكالات، لو أنّها طُرحت، بحقّ، إلى تشخيص ظاهرة هجرة الكفاءات إلى الخارج كما تطرح، في الوقت نفسه، إشكالات تشير إلى فهم لماذا فشلت السّياسات العامّة في البلاد، على الأصعدة كلها، في توفير ظروف تحافظ، ولا تطرد تلك الكفاءات، وبسبب إغفال تلك المعالجات الإعلامية لتلك الإشكالات، فانّ عملها قد يكون دعوة إضافية إلى تصدير لمعان الجهات الجاذبة لتلك الكفاءات لتغادر موارد أخرى إضافية، كما هاجر الآلاف من الأطبّاء، والمهندسون، والباحثون، منذ العشرية السوداء في تسعينيات القرن الماضي) إلى فضاءات توفّر بيئات عمل أفضل من الجزائر.

بالتأكيد، يجب ألا يفهم أصحاب تلك القنوات أنّ الكاتب هنا يرفض التّعريف بتلك الشّخصيات المرموقة التي تصنع النّجاح وتكون محفّزاً وحافزاً للمبدعين وأصحاب الأفكار لتمثل نجاحاتهم في مساراتهم، لكن، نريد أن تطرح مع تلك النّجاحات إشكاليات مانعة من تلك الشخصيات من أن تكون عنصراً فاعلاً في بلدهم، في تقدّمه وفي استفادته مما تزخر به عقولهم، وبخاصّة أننا نعيش حالياً عصراً للأفكار فيه المكانة المحورية في إنتاج العلم، المعرفة والابتكار وتحويل ذلك إلى ناتج خام تتنافس فيه الدول على الريادة في العالم.

نريد، هنا، الشد على أيدي وزارة التعليم العالي التي جعلت من العام الماضي (2023) عاما للذّكاء الاصطناعي لمرافقة المبدعين، وهم كثر، في الجزائر، ومشاريع بحوثهم كثيرة بعضها لم يبرح أدراج مخابر البحث في البلاد، لأسباب كثيرة، ربما أشير إلى بعضها، كما نريد من الوزارة أن تعقد تلك الجلسات التي يجري فيها النّقاش حول الإبداع، قيمته، تكاليفه، فاعليه، ولماذا يهاجر بعضٌ منهم وكيف يمكن، بمبادرات وسياسات عامة، الحفاظ على بقائهم في بلادهم منتجين للمعرفة ومشاركين في صنع تطور البلاد. نريد حلولاً لظاهرة هجرة تلك العقول من خلال سنّ قوانين أساسيّة ترفع من شأنهم في المجتمع، وتوفّر لهم أجوراً لائقة بإبداعاتهم، وتفتح لهم المجال للمقاولاتية من دون تعقيدات وبمساعدات مالية في شكل شراكاتٍ، نرى في بيئات أخرى كيف استطاعت أن تجذب المبدعين، وتجعل منهم أصحاب المليارات بعملهم. نريد أن تتحوّل الدعوة تلك عاماً للذكاء الاصطناعي، ومنعرجاً لإيجاد مناحي أعمال يتيح تجسيد تلك الشراكات من خلال مسار يحوّل البحوث إلى مشاريع تقدم أمام مؤسسات حاضنة للمقاولاتية (الوزارة موجودة)، وتنال مقدار تجسيد تلك الأفكار في شكل تعاقدات مالية يتم رسم معالمها إما قروضاً أو شراكات مع ضمان تشغيل أيدٍ عاملة مبدعة وتوفير عقارات ومقارّ لتلك الشركات على شكل مدن للعلم والإبداع وشكل شركات «ستار أب» (Star Up). ويمكن لتلك الشخصيات التي تُدعى إلى الجزائر ممن جسّدوا أفكارهم في المهجر ونجحوا في أن تكون هي الراسمة لذلك المسار مع سلطات واسعة في الإشراف على التنفيذ ومراقبة التجسيد الفعلي لتلك الأفكار.

هي دعوة إلى تلك القنوات الإعلامية وإلى وزارة التّعليم العالي لرسم شراكة يتمُّ فيها التركيز على النجاح، مع تشخيص معالم جدلية الجذب والطرد، مردود النجاح، وتداعيات التجسيد الفعلي للمقاولاتية كما يجب أن تكون، خصوصاً إذا ترافق ذلك بعامل الاستفادة من تجربة الناجحين ممن يجري تركيز الأضواء عليهم. إنّها دعوة إلى الإبداع وتجسيد عالم الأفكار بتقييم مناخ العلم في بلادنا، ولم لا ننطلق من عوامل الفشل، سابقاً، لصنع النّجاح مستقبلاً في إطار نظريّة المؤرّخ البريطاني توينبي للتحدّي والاستجابة، والجزائر تملك تلك الإمكانية، لكنّها تحتاج إلى إرادة حقيقيّة لتحويل الجزائر إلى حالة الإنتاج الفعلي للأفكار والاستفادة من الموارد البشريّة التي تزخر بها.

(أستاذ جامعي جزائري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads